

اللغة العربية وعلوم العصر

الكنوة عائنة عبدالرحمن

موسكو العربية ، وجدتها جميعا من صميم علوم العصر التي وضعت لتكون مرجعا للدارسين في الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى .

واوشكت أن اطرح هذه الكتب جاتبا ، أو اتخف من عينها على خزانة كتيبى ، بالتماس من يهتم بيوادها التي لاشأن لى بها ولا اتصال .

غير انى ما لبثت ان ذكرت ما اشتغل به من تضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، احاول ان استبين الى اى مدى طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا اليه في المجال العلمى والصناعى .

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية الى عدد من صفوة علماء الاختصاص وفى مقدمتهم عالمنا الحكيم الدكتور محمد كامل حسين والدكتور اسامة امين الخولى وكيل هندسة القاهرة .

وكانت مفاجأة لى ، ان اقرا لغتى فى هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طبيعة

« مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الاسلامية وفجر العصر الحديث » .

« ومنذ عزلت عن الميدان العلمى تدريسا وتأليفا، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى لا تحتل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى اليها حتى عربت « موسكو » علوم العصر : فهل كنا نحرث فى الماء ؟ ! »

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبها اول الامر بما ينشره « المجمع العلمى للاتحاد السوفيتى » من ذخائر تراث لنا ، يرى فيه رواد الفضاء اكفان موتى وأحافير اثرية من عصور غبرت ، ولايسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة ، فمن تد يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب ان يوفر كله للسباق الظاهر الى غزو القمر .

فلما نظرت فى كتب هذه الرسالة من مطبوعات

ميسرة ، لاتتوقف ولا تتعثر .

وأن أمضى في قراءة المواد العلمية التي انزلت عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكشف فجأة أن أسراراً من لفته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به افقنا العربي المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبرر عذر جامعاتنا في الاصرار على تدريسها بلغة اجنبية .

وتندرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علمياً وصناعياً ، ان نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها في عصر العلم !

فمبلغ علمي ، ان جيلنا مازال منذ وعي ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الامة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضى الامة ودرسوا تراثها العلمي ، فقد وقفوا في حيرة من امر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهي التي استطاعت منذ عشرة قرون ، وأكثر ، ان تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للامم القديمة ، وان تنقل الى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ ؟

وكيف يعيها اليوم ان تنقل علومها كان للعلماء العرب ، في عصر الحضارة الاسلامية ، مجد الزيادة فيها وتحريرها من المنهج التأملى الفلسفى الذى كان يسيطر على العقليّة اليونانية في عصر تبادتها للفكر الانسانى فيردها الى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعا او عاجزا عن التجربة العلمية بمنهجها الاستقرائى الدقيق واجهزتها العملية ؟

تاريخ :

ومن وراء ثلاثة عشر قرناً ، مضيت اسابير التاريخ العلمى لامتى ، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو !

من القرن الاول الهجرى — السابع الميلادى — بدأ اتصال العربية بالتراث العلمى القديم ، في حركة

ترجمة لكتب في النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الاموى ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بنى أمية .

على ان الترجمة لم تلبث ان أخذت في العصر العباسى الاول ، وضعا رسمياً تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخى من الخزانة العامة ، وتمتد استوعبت الحركة في عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكرى والعلمى في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقليّة الاسلامية ان هضبت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحاً جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الاسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر اليها .

وتلقى معجم العربية رصيذاً ضخماً من المصطلحات العلمية المعربة ، الى جانب اللفاظ العربية التي امكن تطويعها للمصطلح العلمى . ولا يذكر التاريخ ان حركة احياء التراث العلمى قد انتظرت طويلاً ريثما يستقر رأى المختصين على امكان نقل العلوم الى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين في جواز تعريبها .

وفي طمانينة واثقة من تأييد العقيدة الاسلامية للعلم وتجديدها للعقل انطلق علماء الدولة الاسلامية ينظرون في الظواهر الكونية بعقليّة متحررة من الخصومة العتيقة المبررة بين العلم والدين ، فلم يمتزجوا على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية ، ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى — بدأت المكتبة العربية تتلقى اوليات الكتب العلمية التي فيها اولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا ان تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية في الحساب والجبر والهندسة والفلك وأن تطوع المصطلحات العلمية في الطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان والجغرافيا ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الاجهزة العلمية التي اخترعها علماءنا الذين تم على ايديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية الى مجال البحث العلمى التجريبي ، وكانت في التراث

البابلى مختلطة بالسحر ، وفي المدارس اليونانية داخلية
في نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية
والفلسفة التأملية ..

وكل هذا مما لايجعله دارسو التاريخ العربى
والحضارة الاسلامية ، وقد كان جديرا بأن يصل الى
المنتخبين منا الى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين
الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة
الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على ايدى علمائنا في
العصر التياى للحضارة الاسلامية ، واعترفوا بأن
حركة الاحياء (الرنيسانس) التي بدأت بها النهضة
الحديثة في اوربا ، انما قامت اساسا على ما انتقل الى
الغرب الاوربى من تراثنا العلمى الحضارى ، على
المعابر التاريخية الكبرى في العصر الوسيط : الاندلس
وصقلية والدردينيل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك
والكيمياء ، سارت في الغرب الحديث على الدروب التي
عندها رواد هذه العلوم من اعلام الدولة الاسلامية ،
وقد ثبت تاريخيا ان اكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية
كانت تدرس في جامعات اوربية الى القرن السابع عشر ،
في اصولها العربية او مترجماتها اللاتينية التي تتابعت
من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم
ان رسائل « جابر بن حيسان » (ت 198 هـ) التي
النها في الكيمياء باللغة العربية في القرن الثانى الهجرى ،
عرفتها اوربا في نصوصها العربية وفي ترجمات لاتينية
ثم المانية (هوليارد Holmyard — 1678 م) ،
ثم ترجمها الى الانجليزية (ريتشارد راسل R. Russel)
في طبعة لندن (1928) .

وكتاب حساب الجبر والمقابلة الذى الفه « ابو
عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى » (ت 236 هـ)
في اوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله «جيرار الكريمونى»
الى اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادى ، ثم
نشر « روزن F. Rosen » نصه العربى مع ترجمة
انجليزية في طبعة لندن 1850 .

ونشر (ناغل A. Nagel) ترجمة الابواب
الخاصة منه بالحساب كما وضع (جانز S. Gandz)
كتبا عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب « الحاوى لصناعة الطب » الذى الفه
طبيبنا « ابوبكر الرازى » (ت 311 هـ) من علماء
القرن الثانى واوائل الثالث الهجرى ، تحمل اتقدم
نسخة عربية منه في اوربا ، تاريخ سنة 1282
بمخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (الناسيونال)
وترجمه الى اللاتينية « جيرار الكريمونى » عام 1486م
ونص (رينو) في ترجمته الفرنسية لكتاب ادوار براون
« الطب العربى » على ان كتب الرازى التي ترجمت
الى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءا .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف
بالنصورى — اهداه الى المنصور بن اسحاق والى
خراسان — نشرت ترجمته في طبعة ميلانو 1481 م ،
ثم نشره (كونينج P. Koning) — مع اجزاء من
كتاب « الكناش الملكى » لعلى بن عباس والقانون لابن
سينا — في طبعة ليدن سنة 1903 ، وترجمة (برونز
W Bronner) الى الالمانية في طبعة برلين 1900 .

ورسالته في الجدرى والحصبة ترجمها (فاللا
E. Valla) الى اللاتينية في طبعة البندقية عام
1498 م ، و (جاك جوبيل J. Goupyl) الى اليونانية
في عام 1548 وترجمه الى الفرنسية (جاك بوليه
J. Poulet) في طبعة باريس 1866 ، و (لوكير ،
ولينوار Leclere, Lenoir) في طبعة
باريس سنة 1866 .

ونشر (جرينهل W. Greenhill) نصه العربى
مع ترجمة انجليزية في طبعة لندن 1848 ..
كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام
1896 ..

وترجمه (كارل اويتز K. Opitz) الى الالمانية
في طبعة ليبزج 1911 .

وكتاب على بن العباس (ت 383 هـ) — « كامل
الصناعة الطبية » المعروف بالكناش الملكى الذى الفه
بالعربية في القرن الرابع الهجرى ، ترجم الى اللاتينية
في طبعة البندقية سنة 1492 ، ثم في طبعة
ليدن سنة 1523 .

وبصريات الحسن بن الهيثم (ت 422 هـ) التي
الفها بالعربية في كتاب من سبعة اجزاء بعنوان (المناظر)
عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم في ترجمات لاتينية

بالعصور الوسطى ، ونشر (ريزنر Risner)
ترجمة كاملة له بأجزائه السبعة عام 1573 ، كما
نشر (كارل شوي K. Schoy) بالالمانية عام 1920
رسالة ابن الهيثم في استخراج القطب .

وكتاب « الادوية البسيطة » للطبيب الاندلسي
(ابن الوند) نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين
مرة !

وكتاب « التصريف » للطبيب الاندلسي « ابي
القاسم الزهراوى » (ت 411 هـ) ترجم الى
اللاتينية في طبعة البندقية سنة 1497 ثم في طبعة
ستراسبورج سنة 1532 ، وبال 1541 م . والجزء
الخاص منه بالجراحة كان اساسا للتعليم الجراحى
بأوروبا لبضعة ترون . وقد نشر نصه العربى مع
ترجمة لاتينية في طبعة اكسفورد سنة 1778 م .

وتانون (الشيخ الرئيس ابن سينا) ، ابي
على الحسين (ت 428 هـ) في الطب المؤلف بالعربية
في اوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة
اجزاء ، ترجمه الى اللاتينية (جيرار الكريمونى)
ونشر في طبعات ميلانو 1473 ، و (بادوا Padoa)
1476 ، والبندقية 1482 . ثم أعيد طبعه حتى
بلغت طبعاته العشرين في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر ، ونشر نصه العربى في روما سنة
1593 م .

وكتاب « الشريف الاديسى » - (ت 457 هـ)
- « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » الذى
الفه في صقلية ، في القرن الخامس الهجرى ، كان
المرجع الجغرافى الاول في عصر النهضة ، ونشرت
اجزاء منه في ليدن سنة 1866 م ، وفي روما مع
ترجمة ايطالية سنة 1883 ، وفي مدريد سنة
1901 . وترجمة (دى جوييه ودوتز
M. D. Joeje, R. Doz) الى الالمانية في طبعة

(اوبسالا) سنة 1894 م .

ومفردات (ابن البيطار) - (ت 646 هـ)
في الادوية ، التى الفها بالعربية في كتابه « الجامع
في الادوية المفردة » في اوائل القرن السابع الهجرى
عرفت في نصها العربى بأوروبا في عصر النهضة ،
وترجمت الى اللاتينية قبل ان ينقلها (فنون
زونتهايمر) الى الالمانية في طبعة (شتوتجارت)
(1840 - 1842 م) ، و (لوكير) الى الفرنسية
في طبعة باريس (1877 - 1883 م) .

ثم لا امضى في سرد ما احيا الغرب من ذخائر
تراثنا العلمى (1) الذى صد عنها المتفرنجين من
مبتغينا ، كونها من حفريات ماض غير ، ومخلفات
موتى افناهم البلى .

في الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة
الغربيون ، من امثال « سارتون » ، وويل ديورانت ،
والدوميلى ، ونلليو ، وامارى ، وادم ميتز ،
ولوبون ، ودى سور ، واوليرى ، وبراون ،
وكراتشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجيريد هونكه . .
ان هذه الذخائر في اصولها العربية وترجماتها
اللاتينية ، هى التى اضاعت للغرب مسراه من
ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والعلم
الحديث .

وادع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لفتنا
العربية قد سائرت التقدم العلمى فاستطاعت في فجر
العصر الحديث عندنا ، ان تأخذ دورها في مدارس
العلوم العسكرية والهندسية والطبية والزراعية ، في
اوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة
الاستعمارية بأساتذة من علماء فرنسا ، (كلوت بك)
الطبيب ، والدكتور (فيجرى) عالم النبات ، كان

(1) من اقرب المراجع لهذا الموضوع كتاب « العلم عند العرب » ، لالدوميلى ترجمة د . عبد الحليم
النجار ، و د . محمد يوسف موسى ط دار العلم بالقاهرة 1962 ، وتجد في الفصل الاول من كتاب
الدكتور توفيق الطويل « العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبى » - ط النهضة العربية - 1968 ،
دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعته . وراجع محاضرة تراثنا بين شرق
وغرب ، في كتابى « تراثنا بين ماض وحاضر » من مطبوعات « معهد البحث والدراسات العربية »
سنة 1968 .

• والتأليف فيها بالعربية •

وقد اشتهر منهم (الدكتور كورنيليوس فاندريك) الذى درس في بيروت بالعربية : الكيمياء والجويات وعلم الامراض • وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية في مبادئ الطب البشرى ، والنقش في الحجر (في تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلدة منها موجز في علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية) . وله كتب عربية اخرى في الرياضيات ، وأصول الجبر ، والاصول الهندسية ، واصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء ، في الفلك ••

و (الدكتور جورج يوسف) قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية • ومن مؤلفاته فيها (المصباح الواضح في صناعة الجراح) والاترياذين والمواد الطبية ، ومبادئ التشريح والصحة والفسولوجية ، وكتاب من جزأين في مبادئ علم النبات • وقد الف معجما قيميا باللغة الانجليزية في (نبات سورية وفلسطين والتطرر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للاسماء العربية ، نصحى او عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو الف وخمسمائة اسم •

و (الدكتور يوحنا ورتبات) علم في كلية بيروت، التشريح والفسولوجية بالعربية ، والف بها كتب التشريح ، والفسولوجية ، وحفظ الصحة ، ورسائل عديدة في مسائل طبية (2) •

وقصة :

الى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا

المرجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضررون معهم في قاعات الدرس لترجمة دروسهم الى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية الى بداية عصر الاحتلال • ولم يفكر اعضاء البعثات العلمية الاولى (من العرب) الذين اوفدوا الى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، عند عودتهم الى بلادهم، في أن يلتوا دروسهم على طلاب المعاهد العربية العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا الى مكتبتنا العلمية رصيذا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم •

الف الجراح الشهير (محمد على البتلى) كتبا عربية في الجراحة ، و (محمد الشافعى) في الامراض الباطنية ، و (محمد ندى) في النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة ، والصيدلى (على رياض) في الصيدلية والسموم ، و (محمد الدرى) في الجراحة والامراض البائية ، و (سالم سالم) في الطب الباطنى ، و (محمود الفلكى) في التقاويم والمقاييس والفلك ، و (محمد بيومى) في الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية ••

وشارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم (محمد عمر التونسى) مؤلف « معجم الشذور الذهبية في الالفاظ الطبية » ، و (ابراهيم الدسوقى) الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية ، و (رفاعة رافع الطهطاوى) و (احمد فارس الشدياق) و (المعلم بطرس البستاني) في الفاظ الحضارة والفنون (1) •

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين ايدي المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام في النصف الثانى من القرن الماضى ، وشاركوا في هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة

(1) من مراجع هذا الموضوع :

- « تقويم النيل » و « التعليم في مصر » لامين سامى — ط القاهرة •
- « تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر » — لاجد تيمور : 1940 •
- « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » للاستاذ مصطفى الشهابى : مطبوعات المعهد 1955 •
- « تاريخ التعليم في مصر » للدكتور احمد عزت عبد الكريم — القاهرة 1945 •

(2) الاستاذ مصطفى الشهابى • « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » ص 42 ط المعهد •

العلمى ، قبل أن تتسلل الى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها ..

أما ما بعد ذلك فيشبهه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن يميز خيوطها المتشابكة في نسيج معتد أشد التعميد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟

والى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة في أقطار الوطن العربى . وقد اكتفى في هذا المجال المحدود بتتبع فصولها في مصر التي كانت مركزا للغزو الفكرى ، بحكم دورها القيادى في فجر اليقظة العربية ، وان تكن القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى في سائر أقطار الوطن العربى .

مع بدء نكبنا بالاحتلال عزلت اللغة عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التي فرض المستعمر دراستها بلغته . وسائر هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وانما حسبها أن تبقى في الكتايب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، في القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، الى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى في عصور الانحطاط ، انما يرجع الى تشبنا بلغة بدوية من أحامير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حذاء الابل والوقوف على الاطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو في مجتمع الزراعة والرعى ، اذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة الى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى في بعض مراحلها الاولى بالدعوة الى اللغة العامية ، فالدكتور (سبيتا) كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة الى الموت ، الى اللغة العامية — على أن نكتبها بحروف لاتينية !

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فنى طريقين ، أحدهما يدعو الى العامية ، والاخر يدعو الى لغة اجنبية حية بديلا للعربية الميتة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

مع بوادى الثورة العرابية ، روج عدد من المنتقن العرب لفكرة استبدال لغة اجنبية بلغتنا العربية ، واذا كان قادة الامة قد وجدوا في العامية وسيلة الى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فانهم لم يجدوا في الدعوة الى لغة اجنبية سوى مسخ لشخصية الامة وتضاء عليها .

وبدا (عبد الله النديم) من العدد الاول من « التنكيت والتبكيك » (1) حملته على دعاة اللغة الاجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد و « عربى متفرنج » ، ثم كتب في العدد الثانى مقالا عنوانه : « اضاعة اللغة تسليم للذات » سأل فيه الناطقى بالضاد : بم يستعيز عن لغته وما لها من مثل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن في لغة اجنبية حديثة ليس في لغتنا ؟ ثم استطرده يقول : « ان اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الانسان والبهيم ... فهى أنت ان كنت لا تدرى من أنت ، وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلانك بها تعرف أهلك ، وأنت اذا فقدتهم صرت وحيدا غريبا ، في الوجود لا يتولى لك تامل من أنت ، وأما كونها وطنك فانه انما يعبر الوطن ويسمى وطننا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« اسمعك تقول : اذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى . اعتضت عنها ولكن بما اضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية .. فقبت واثت وطنى حراً ، وتصبح وأنت في يد اجنبى يصرنك كيف يشاء ... لان اضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم الاستاذ « أمين شميل » فدخّل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافى ومكانته الادبية فلم يكتب بأن نستعير لغة اجنبية (لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها) ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية:

(1) مجلة أصدرها « النديم » عام 1881 .

فصحى وعامية الى لغة اجنبية تحيينا علميا وثقافيا واقتصاديا . واكد عقم كل محاولة تبذل لحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتما بالموت !

وكانت وجهة نظره :

— ان اللغة اداة للتعبير . والمراء لا يقيد بلغة خاصة اذا ما استطاع ان يصل الى الهدف وهو التعبير عن نفسه . واذا كانت اللغة العربية ليست اداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف اهلها فلا لوم عليه اذا تركها الى غيرها من اللغات الاجنبية لان الانسان مفطور على طلب التقدم .

— ان اللغة العربية سائرة حتما الى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العبرية ، ومع ذلك لم تستطع ان تتغلب على الموت . فباى شئ نستبقى اللغة العربية ونغرى بالتمسك بها : بحسن كلام ام بلطافة لفظ ام بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ اليس ذلك كله كان كثيرا في لغات ماتت كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون ان يقيها من الموت شئ ؟

— ان احياء اللغة العربية بعد موتها امر معجز عسير غير مأمون العواتب فضلا عن كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وانسى لنا ان نكون خيرا من اصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال باحياء ما تقضت الحياة بموته يؤتينا خبزا ؟ اذهب الى دوائر حطامنا ومراكز تجارنا، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم الف كتابا واجمله كله ضادا ، واصرف فيه عمرك واعرضه على تومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« اما اللذة العقلية التي احصلها من درس لغتى لانهم كتب علمائها الجلييلة واملأ صدرى من فرائد اتموالهم البديعة : فانك تعلم اولاً ان كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غداء جسده . وقد نسيت ثانياً ان مؤلفاتنا التي نفتخر بها — يعنى ذخائر تراثنا — قد نهبت لفظا ومعنى الى مراكز الامم النامية — يعنى الراقية

المتقدمة — فزادوا عليها امورا كثيرة ، فهى حية في تلك الامم ميتة عندك ، لاسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها اغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها ان كثيرا قد نسخ بما اظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التي حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له في هذه الكتب . ومنها عدم وجودها كلها اذ لم يبق منها الا الطفيف :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاهما وحتى ساءها كل مفلس

وهذا الهزال الباقى اذا كنت سعيدا وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه مالا جزيلا ، ومن اين لك المال يا اخى وانت تتجر ببضائع اكلها العث وبدلتها الموضة ؟ »

— ان من اراد كسبا ماديا وعلميا فليختر لغة غير العربية « اية لغة اجنبية ان كتبت بها راجت كتابتك ، وان طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتباً لا تحصى في غاية الضبط والكمال امتلأت خزانتك . منها كتب اجدادك قد تصفحها اصدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بثمن ارخص من الفجل . فاذا اشتبه عليك معناها وجدت الونفا يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم ان في لغة الطفولة لذة ووطنية ، الا ان الوطنية الحققة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة في المعانى لا في الالفاظ اعنى في صيانة حقوق الامراد واحكام العدل والتسوية والالتفات الى الامة ولغتها وعدم اعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فاذا فعلت هينتنا ذلك هان عليها كل شئ ، والا فانت تضرب في حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا واشتعل الرأس شيبا .

وقد نشر النديم مقال شميل بعنوان « كلمة غيور على لغته » في العدد الخامس من (التنكيت والتبكيك) — (10 — 7 — 1881) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى ان يفرغ اولاً من بيان حقيقة ان اضاءة اللغة تسليم للذات ، واستشرق الشرح مقالا مطولا في العدد الثالث عشر من (التنكيت) حيث اوضح ان من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية راسا ويتجنسون باللغة الطارئة ،

« فاذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فاذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العربية لغته في دوامتها ، حتى اذا عاد الى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزي قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمي والعلمي ، وفرض اللغة الإنجليزية لغة للتعليم .

واذ كانت السلطة حين رخصت للنديم في إصدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد في معركة الغزو اللغوي الذي كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسي والقضاء على الأمة .

وبدا نضاله من حيث انتهى به القول في « اضعاء اللغة تسليم للذات » عام 1881 م ، فاستأنف رده على المقال الذي كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاما ، فلم يلمه على ترك اللغة العربية وهي ليست لغة الانجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين مقر الكاتب الضادى وهو انه لدى الحكام واصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالي وقيمته « بان الأمة ليست كلها في دوائر الحكومة ولا متجرة مع اوربا ، وانما الجأ بعض الأمة الى تعلم اللغات الاجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الاوربي المنتقل الى بلادنا اتجارا واستيطانا ، تعلم لغتنا ليعاملنا او يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليخدم الاوربي ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل - الأستاذ شميل - أن يبكت الذين احيوا لغة الاجانب بامانة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الاجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة اليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث (شميل) عن ذخائر تراثنا الذي رأي ان يلتبسها من شاء منا لدى الاجانب الذين نهبوا ومهبوها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليه النديم بان في كلامه اقرارا بان الانجليزية او الفرنسية لم يفهمها الا بعد أن تعلم لغتنا واتقن معرفة قواعدها ، والا لاستحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من خارجها فضلا عن فهم معناها . فاذا كان الاجنبي يقدر على فهم معاني لغتنا لينقل ما فيها الى لغته ، افلا نتعلمها نحن للمحافظة على ما عندنا ؟ واذا كان الاجنبي يقدر على فهم معاني لغتنا وهي اجنبية عنه ، افلا تقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ واما تعليقه بالاغلاط - في كتب تراثنا - فإظنه من باب التنكيت ! فان الذين تمدح بهم من الامرئج ما اخذوا تلك العلوم الا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لانها مأخوذة من اغاليط لا صواب فيها . فان قيل انهم صححوها وهي بغير لغتهم ، قلنا : افلا يقدر اصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم ادري بها من غيرهم ؟ واما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فانه منقوض بنفس القائل ، فانه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معاني تلك المؤلفات والاخذ منها والنقل عنها كما فعل في مؤلفاته العربية (1) مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية . فالعلماء القائلون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش . تشهد بذلك الكتب التي الفت من القرن الاول الاسلامي الى الآن . على ان العلوم التي اهلكت في الشرق كالتطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت في الغرب قد ترجمها الشرقيون الى لغتهم وقرأوها في مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفتها شيء مما كتب في اوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية الى اللغة الفرنسية او الانجليزية الا في هذه السنة ، وهي نشأة موقته لا تمكث الا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التي يصرفون اموالهم على المدارس التي هي فيها ، ولا يعارضهم في ذلك معارض ، فان الاجنبي لم ينفق

(1) الف الأستاذ شميل في القانون والسياسة والادب . ومن مؤلفاته : « الوافي » في تاريخ المسألة الشرقية ، و « المبتكر في الادب » (5 مقالات + 25 تصيدة) ، و « نظام الحكومة الانجليزية » و « الدررة الجليلة في المباحث القضائية » .

البكرى لرياسته ، ومحمد بيرم لاعمال السكرتارية .
وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عددا من
المصطلحات العلمية ، وكان آخر الجلسات يوم 27
- 2 - 1893 .

وفي العام نفسه ظهرت مجلة «المهندس» فقدمت
تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الفصحى
تحديا لمجلة «الازهر» (1) وحضا لدعوى من قالوا
بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى
«المهندس أحمد كامل» تحرير القسم الهندسى
والرياضى و «الدكتور مهدى» تحرير القسم الطبى ،
و «حسن بك حسنى» تحرير القسم الفلسفى .

وشهدت مرحلة اليقظة حركة تطور فى اساليب
العربية ونهوض باللغة ، استوعبها الاستاذ العميد
محمد خلف الله فى كتاب «معالم التطور الحديث
فى اللغة وآدابها» (ج 1 - القاهرة 1961) .

ثم شهد النصف الاول من هذا القرن عددا من
علمائنا ، عكفوا فى اخلاص باذل ، على وضع معاجم
للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور محمد شرف
(بالانجليزية والعربية) فى العلوم الطبية والكيمياء
والطبيعة والمواليد والنبات ، ومعجم الحيوان والمعجم
الفلكى للدكتور أمين المعلوف (بالانجليزية والعربية
ايضا) ، ومعجم اسماء النبات للدكتور أحمد عيسى
(بالعربية والفرنسية) ومعجم الالفاظ الزراعية للامير
مصطفى الشهابى (بالعربية والفرنسية) . ونشرت
مجلات المرحلة - كمجلة المجمع العلمى بدمشق
ومجلة لفة العرب ببغداد ومجلة المقتطف بمصر -
بحوثا علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية
او المعربة . واشتغل عدد من اعلام العصر بتحقيقات
لغوية للالفاظ العلمية . منهم أحمد تيمور وأحمد زكى
فى بحوثهما فى الفاظ الحضارة واسماء البلدان ،
والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لانفاظ الفلك .
ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثا فى المصطلحات
الدبلوماسية (دمشق 1949) والدكتور عدنان
الخطيب فى لغة القاتون (دمشق 1952) والدكتور
بشر فارس فى مصطلحات فن التصوير (مصر 1945)

على المدارس درهما ولا دينارا حتى يحتم علينا لغته
التي لا حاجة لنا بها فى التدريس . (الأستاذ : 20
- 3 / 6 / 1893) .

وهذا الحوار بين النديم وشميل يكتفى هنا
لاعطاء فكرة عن ابعاد المعركة واسلحة الفريقين
فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة
فترى انه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلّى عن
لغة الابه ، عجز عن التصدى لفرض العربية على
المجال العلمى ، وقد عزلت تماما عن هذا المجال ،
حتى اعترف الوطنيون انفسهم بقصورها عن أداء
العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخصصة لعلاج هذا
التصور .

ويمكن القول ان الشعور بحضنة العربية بدأ
منذ اغلقت المعاهد العلمية مدرسة اللسن فى عصر
(سعيد) . ففى عام 1860 دعا (احمد فارس
الشدياق) فى مجلة «الجوائب» الى تأزر جهود
المشايع والعلماء ، لتعريب مصطلحات العلوم والفنون
التي لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحمل الدعوة من
بعده (عبد الله فكرى) فى « الآثار الفكرية » عام
1876 ، ثم تولاها (النديم) فى « الاستاذ » من عام
1892 لانما الى واجب القائمين بالامر فينا ، فى ان
يحولوا بين اللغة وموتها ، باحداث جمعية من مشايخ
الازهر وفاضل العلماء العارفين باللغات الاجنبية ،
ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمياوية والهندسية
ومفردات الكلام ، اسماء عربية تدرس بها تلك
العلوم .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففى اوائل
عام 1893 اجتمع فى دار السيد محمد توفيق البكرى
عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع
المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ،
وحزمة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفى
ناصر ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد
عثمان جلال ، ومحمد كمال .
ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد

(1) مجلة آلت الى (وليم ويلكوكس) فى ديسمبر 1892 حاول ان يجعل منها منبرا للدعوة الى العامية
وامانة الفصحى .

للفاكة الثقافية التي نعانيها في وقتنا : « لان هذه اللغة لا ترضى مثقفا في العصر الحاضر ، اذ هي لا تخدم الامة ولا ترقئها ، لانها تعجز عن نقل نحو مائة من العلوم التي تصوغ المستقبل » (1) .

واضطرب بين الدعوة الى العامية والدعوة الى لغة علمية ، ليست هي لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الاحاح في النصح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

.. ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور اننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، اذا اشتغلنا بتأليف الكتب عن اقطاب الصناعة في عصرنا ، بدلا من التأليف في اعلام تاريخنا .

ويطرح هذا السؤال :

« نحن نحاول ان نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى اننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق الى البيئات لا الى العقائد ... فيجب لهذا السبب ان تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

اما اللغة العلمية ، فتعنى عنده ان كتب المطالعة في المدرسة والبيت يجب ان تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات ادبية من كتب العرب قبل الف او خمسمائة سنة « - 96 .

كما تعنى ان نكف عن الاساليب الادبية ، لتكتب بلغة الارقام واللغة العصرية .

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :
من الطب :

— اللغة هي الجهاز العصبى للمجتمع .

— خوف الغارات قد نفذ الى جميع مسام المجتمع .

(1) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والجامع فسي هذا المجال ، اقرأ كتاب الاستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط المعهد 1955 .

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الاستاذ جريفيل فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف فى تحقيق اسماء نباتية طبية ، وشرح اسماء العقار لابن ميمون الإندلسى ، والدكتور رينو والاستاذ كوليين ، فى شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه « تحفة الاحباب فى ماهية النبات والاعشاب » .

وتألفت لجان فى مصر وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية ، وتألفت الجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها ، فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام 1919 ، والمجمع اللغوى بالتهرة عام 1932 ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام 1947 (1) .

ولكن هذه الجهود المبذولة على مدى نصف قرن ، لم تستطع ان تعيد اللغة العربية الى مجالها الحيوى فى الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك ان تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الاجانب بعد ان خرج ويلكوكس ودخله الاستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسؤولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى الى جانب مسؤوليتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الاستاذ واعيا لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، فى المجتمع وفى اللغة ، حريصا على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد أخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسؤولة عن كل امراضنا !

واشدت حملته على (الاحافير اللغوية) وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد ان لغتنا تستطيع ان تجتر نفسها . وهذا الاعتقاد من اكبر الاسباب

الاساليب في نقلنا الى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون ان لغة القرآن التى زعموا انها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الاعلى ، تستخدم ما يسونه اللغة العلمية ، على نحو يتضائل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة ، كمثمل آيات :

« رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت » (محمد : 20) .

« اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » (ابراهيم : 18) .

« او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب . ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكده يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور : 40) .

« يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » (النور : 43) .

« والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء ، حتى اذا جساء لم يجده شيئا » (النور : 39) .

* * *

فأين من هذه الآيات المحكمات ، تجرثم الفكرة وتاطرة التاريخ والخثرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الاستاذ سلامة موسى قدم حلا لازمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث ان ترك هذه العبارات العصرية ليدعو الى « الخط اللاتينى » الذى انتهت اليه آماله فى رقى الامة وتطورها وأصلاح المجتمع ، وحامت حوله احلامه فى عالم سعيد او « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الاستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العدول عن الحروف العربية الى الحروف اللاتينية تصدا الى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بها يغنى عن ضبطها بالشكل . فتلف الكاتب المصلح « الاستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

— يمشى فى تناقل روماترمى .

— الوتف كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية .

— يعانى تخمة ذهنية .

من الكيمياء :

— كان مذهب التطور من اعظم الخماير الاجتماعية .

ومن الطبيعة :

— الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

— من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ...

— الطاقة الموطرية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا :

— يرى المصباح الاحمر اينما سار .

— الحرب هى تاطرة التاريخ لانها تعجل التطور

ومن الموسيقى :

— الحياة تفقد ايقاعها فى المرض .

ومن السيكلوجية :

— تجرثم الفكرة عندى .

ولست ادرى ما تيمية هذه العبارات الركيكة التى ساتها فى باب « اللغة العصرية » (ص 75) . ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى اتلامنا بأساليب بيانية من مثل تولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، واخذة المفاجأة ، واتزان الرأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، ونلك التصور ، وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، واعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الخطى ، وعمم الوجدان ...

دون ان تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا في حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بان اصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة الى الاصلاح الجرىء الا في رجال نابهن لا يباليون بالجهلة والحمقى ، مثل قاسم امين ، او احمد امين في الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمى حيث يدعوا الى الخط اللاتينى والواقع ان اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (!) التى اغلق عليها هذا الخط ابواب ماضيها وفتح لها ابواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج اولاً الى الغاء الاعراب وميزاته :

« اولاً : الاقتراب من التوحيد البشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند المتعلمين الذين يملكون الصناعة ، اى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الامم التى ترغب في التجدد كما فعلت تركيا . ومن المرجح ان يعم هذا الخط العالم كله تقريباً .

« وثانياً : حين نصطنع الخط اللاتينى يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشؤومتان : شرق وغرب ، فلا تتغير من ان نعيش العيشة العصرية . ولا بد ان يجر هذا الخط في اثره كثيراً من ضروب الاصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ .

« وثالثاً : ورابعاً وخامساً ...

« وسادساً : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتينى نجد ان تعلم اللغات الاوربية قد سهل ايضا ، فتنفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة .

« وبالجملة نستطيع ان نقول ان الخط اللاتينى هو وثبة في النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ » (1)

هل الامر حقيقة يمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا — القوة والمثال — ان تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما بلغته اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرعية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا — والانكليزية لغتها الرسمية والثقافية ، ان تملك من العلم والقوة والمستقبل ما لا تملكه مصر أو المغرب مثلاً ؟

أو هل خرج السودان الجنوبي — ولغته الانكليزية — من الشعوب المتخلفة الى الدول المتقدمة ، وتحرر من الكلمتين المشؤومتين : شرق وغرب ، فاستطاع ان يعيش العيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت امامه آفاق موصدة في وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلّى عنها ، رجال تعوزهم الجراة والنباهة كيلا يباليوا بالجهلة والحمقى ؟

لكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تصمد لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غرباً « لان هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفاً في العصر الحاضر اذ هى لا تخدم الامة ولا ترقبها ، لانها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكيفه » — كما أكد سلامة موسى في كتابه « البلاغة العصرية واللغة العربية » .

بل أخشى ان اتول انها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر ..

ومن هنا كان الخطر ..

فالامة حين تحسن هجومها على عناصر ذاتها ومقومات اصلتها ووجودها من اجنبى غريب عنها مهما يكن زيه أو تمناعه ، تتحفز لانتقاء الخطر قسى مواجهة عدو سائر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقتها منه الى حد الرفض والتحصن .

(1) سلامة موسى : « البلاغة العصرية » ص 109

أيام آباءنا الاقربين ، فضلا عن جيل اليقظة في القرن
الماضي الذي عرب علوم زمنه .

وعلى مدى نصف قرن او اكثر ، شهدت حياتنا
اللغوية ما اشرنا اليه من جهود فردية سخية لوضع
المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، الى جانب ما
قامت به الهيئات العلمية من جهود في هذا الميدان .
وتمضى عشرات السنين ..

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى
يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت
في تقاريرها او مجلاتها ، ما يستقر عليه الراي من
مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب
في الرباط يوالي ارسال رسائله الى علماء الوطن
العربي يستفتيهم في مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق،
يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، وقد يكتفى
ان اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

— مختارات من رسائل جابر بن حيان ،
(ت 198 هـ) تحقيق بول كراوس — ط
الخانجي بالقاهرة 1935 .

— « المختصر في حساب الجبر والمقابلة » ،
للخوارزمي (ت 236 هـ) — د . علي
مشرقة ، و د . محمد مرسى أحمد —
القاهرة 1937 .

— « صورة الارض » ، للخوارزمي ، (1)
ظهرت منه طبعة كاملة بمعرفة متزك ،
وبحث عنه بقلم تالينو (1895) ومتزك
وهو نجمان (1929) . ويتناول
كراتشوفسكي : « يجب الاعتراف ، تبعا
لتالينو ، وبارتولد ، بأنه لا يوجد شعب
اوربي واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن

أما حين تنتقل السهام الى أيدي نفر من ابنائها
فان الخطر يأتي من حيث لا تتوقع ، ودون أن تتأهب
لاتقائه بشيء من التوجس والحذر والارتياب .

وما يكتبه الاجانب عن عمق العربية ، قلما يصل
الى مجال التأثير العام بحكم عزلة الجماهير ونفورها
من الاجنبي ، وانما يصل اليهم عن طريق المثقفين
الذين ينتمون فكريا الى الغرب ، وهم عادة ينفقون
الى المجال الثقافي بدعوات اصلاحية تقدمية ، ثم
لا يلبثون ان يكشفوا في شخصيتهم لامراض المجتمع ،
ان لغتنا العربية هي علة العلل واصل الداء ، والقيود
الباهظ الذي يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الاصم
الذي يحجز بيننا وبين آفاق العصر .

ويمضي وقت غير قصير قبل ان يتصدى الوعي
القومي لمواجهة الخطر ، لكن بعد ان يحدث الضجيج
اثره في المناخ الفكري للامة ، بحيث تحتاج الى جهد
شاق يستغرق امرا لكي تسترد اوزان خطاها وصفاء
افقتها .

وفي قضية « العربية والعلوم الحديثة » كانت
دعوى عجز هذه اللغة وعمقها ، من جانب « سبيتا » ،
وويلكوكس ، وويلمور ، وغيرهم من الاجانب
الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لو لم تجذب اليها
عددا من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا
في التقدمية والتطور والاشتراكية . وعن طريقتهم
أخذت مجراها في حياتنا القومية .

وكان ربط تخلفنا العلمي والثقافي والاجتماعي
والحضاري بيداوة العربية وجهودها ، هو الذي
مكن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من
صدق عن جهل او غفلة ، وتحير المثقفون العرب
الاصلاء من امر لغتهم التي عرفوا تاريخها العلمي .

وكان راى الكثرة من علمائنا ، ان العلوم
الحديثة تقدمت اشواط بعيدة المدى عن العهد بها

(1) الكتاب ذكره ابو الفدا باسم « رسم الريح المجهول » ودرسه المؤرخ البولندي ليلويل
(Lelewel) وخرج بدعوى اعلنها ، هي ان الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف
اغريقي عاش في بلاد الاسلام ، من المصادر الاسلامية لكن دعواه انهارت من اساسها بعثور « سبيتا » على
اصل المخطوط العربي بالقاهرة سنة 1878 وتدخلت اليه العلماء بمقالين نشرهما في عامي 1879
و 1883 ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة 1883 الى ستراسبورج . انظر كراتشوفسكي في « تاريخ
الادب الجغرافي العربي » ص 68 من الطبعة الاولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم .

— « ثلاثة راهبات — أراجيز ، في علم البحار » ل احمد بن ماجد — شومونكو ، موسكو 1957 .

— بحوث تيدمان في كتاب « نهاية الادراك في دراية الاملاك » لقطب الدين مسعود الشيرازى (ت 634 هـ) ، تلميذ العالم الفلكى نصير الدين الطوسى . وفي الكتاب مباحث في الكوزمولوجيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات .

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكى والجغرافى والملاحى ، في فهراس كراتشكوفسكى لكتابه « تاريخ الادب الجغرافى العربى » ، وفي كتاب نلينو : « الفلك عند العرب » .

الى جانب ما نشر علماءنا من بحوث في المجالات العلمية ، بمصطلحات عربية أو معربة في العلوم . تجدون بيانا لها في محاضرات الامير مصطفى الشهابى : « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » .

* * *

ولا اثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل الى حياتنا العلمية ، ودعونا من حياتنا العالمة التى التفتت من بعض مصطلحات المعجبين ، ما اتخذت منه موضوع فكاهة ومادة تندر ..

والمفروض أن جهود العلماء في نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واستكمال الحركة العلمية في التأليف والترجمة لطليح العصر الحديث في النصف الاول من القرن الماضى ... كانت موجهة الى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها في تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل كل جديد مستحدث الى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث هو أن الكليات العلمية في جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعات والرياضيات ... باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات في واد وجهود العلماء والهيئات في تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها في واد آخر .

ان يقارن بهذا الكتاب الذى افه الخوارزمى ، اكبر رياضى عصره ، وواحد من اكبر رياضى جميع العصور على الاطلاق ، اذا أخذنا في حسابنا اختلاق الظروف » .

— « الذخيرة في علم الطب » لثابت بن قرة (ت 288 هـ) — تحقيق الدكتور جورجى صبحى — ط الجامعة المصرية 1928 .

— « الحسن بن الهيثم » بحوثه وكشوفه البصرية (ت 422 هـ) — الاستاذ مصطفى نظيف — الجامعة المصرية 1942 .

— « استخراج الاوتار في الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها » للبيرونى (ت 440 هـ) — أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

— « الآثار الباقية » لابي الريحان البيرونى — معهد الاستشراق ، طشقند .

— « كتاب الجواهر في معرفة الجواهر » للبيرونى — كرنكو ، حيدرآباد 1937 .

— « القانون المسعودى » في الهيئة والنجوم ، للبيرونى . د . بول كراوس .

— « القانون في الطب » ، للرئيس ابن سينا (ت 428 هـ) ، 13 جزءا ، ط بولاق 1877 ، طشقند 1956 .

— « الشفاء » في المنطق والطبيعات والالهيئات لابن سينا — المجمع اللغوى بالقاهرة ، 1951 ، 1965 .

— « شكل التقاطع » لنصير الدين الطوسى ، (ت 673 هـ) — الاستانة ، سنة 1309 هـ .

— « المعتمد في الادوية » لابن البيطار (ت 646 هـ) — الاستاذ مصطفى السقاء — ط الحلبي 1951 .

— « الفوائد في اصول علم البحار » ل احمد بن ماجد — ق 9 هـ ، ط باريس 1924 .

ثم كان الفصل الاخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى في (دارمير) للطباعة سنة 1968 !

ولم نسمع أن لجائنا عقدت لبحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا اثير حول صلاحية اللغة العربية لاستيعاب علوم العصر !

وانما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذي الفه :

* ف . تسيجيلسكى : اللحام الكهربائى .
* س . فومين : المرجع للملاطى عمال الخراطة والعمال الفنيين .

* ماليشيف ، ونيكولايف ، وشوفالسوف : أسس الميكانيكا العملية .

* افروتين : أسس تشغيل المعادن .
* جلاجونا : الدوال ومنحنياتها .

ما اتمى الدلالة التى تعطىها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو ، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات الجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن من الزمان !

وما ابلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعددت أزمنا به .

لقد بدأت القضية بمزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة الى هجر لغتنا واستعارة الانجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكان هاتين اللغتين دون الالمانية أو الروسية أو اليابانية مثلا ، هما المفتاح السحري لكنوز العلم .

وانتهت بكتب (دارمير) للطباعة في موسكو ، في عصر غزو القبر .

فأين نحن من البداية والنهاية ؟

باستثناء كلية الطب في الجامعة السورية ، التى تأسست في دمشق سنة 1919 - في عهد الملك فيصل الاول ، باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تاسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس اساتذتها ائبته بمجمع لغوى ، تدارسوا فيها المصطلحات التى جاءت في تراثنا من كتب الطب ، وفي الكتب المصرية التى الفها علماءنا ، في عهد محمد على ، والكتب التى الفها اساتذة الطب في جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية الى اللغة الانجليزية .

واستطاع اساتذة دمشق أن يؤلفوا كتابا تيمية في فروع الطب المختلفة ، وفي الكيمياء والفيزياء والمواليد .

فالف الدكتور مرشد خاطر سفرنا في علم الجراحة من ستة مجلدات ، وأجزها في مجلدين .

والف الدكتور أحمد حمدى الخياط كتابا في علم الجراثيم ، والاساتاذ محمد جميل الخانى في علم الطبيعة ، والدكتور حسنى سبوح في الامراض الباطنية (7 مجلدات) ، والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبى في الكيمياء ... (1)

ولكن هذه التجربة الناجحة في العربية لم تتكرر ..

بل لم تستطع ، بعد أن طال بها الزمن اربعين عاما ، أن تتفتح جامعات مصر وبيروت والخرطوم بتعريب كليتها العلمية .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الازهر ، اعرق جامعة اسلامية ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الانجليزية للتدريس فيما استحدثنا من كليات علمية (2) .

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، تسد وصلت الى باب مسدود ...

* * *

(1) لكلية طب دمشق جهود اخرى في الميدان : اشار اليها الامير مصطفى الشهابى : المصطلحات ص 58 .

(2) تعربت الدراسة في الكلية الطبية ببغداد ايضا ، في الاعوام الاخيرة .

شقى الوسائل لعلاجِه ، كنا كمن يحرق في البحر ...

وإذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التي جاءت من الأجناب الغريباء ومن إبنائها المتغربين ، تحارينا باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتيني حيناً آخر ، وتتهمها بالبداءة والعمق فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر .

أقول إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت * .

وحين أقول : انتهت القصة ، فانى اعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى ، من حيث هى قضية لغوية ظلت مطروحة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وتصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وناقتنا الثقافية ...

ويبقى أن يلتبس الباحثون أسباباً أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها ، من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح أننا في تبرير موقف جامعاتنا بهذا العقم في العربية، والتماسنا

* محاضرة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء : أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس » .